

نزعات ما بعد الحداثة في الأدب العربي المهجري

الدكتور م. كبير، أستاذ المشارك، قسم العربية، الكلية المنانية للفنون والعلوم

المقدمة

إن الأدب دائماً مرآة صافية تنعكس فيها الأحوال الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، فبذا الأنظمة الرأسمالية والإقطاعية والشيوعية والإشتراكية وغيرها لها دور فعال في الأدب. هذا ما نعرف من التاريخ أن الاختلافات الإجتماعية والإضطرابات الإقتصادية والإنقلابات السياسية تأثر الأدب في جميع البلدان. هذا هو السبب في ان تكون تربة الأدب في لبنان وسورية والعراق ومصر أكثر خصبة من تربة الأدب في البلدان العربية الخليجية أمثال المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وعمان والبحرين وقطر.

والأدب عصير العصر يذاق فيه أحلى الحلاوة في مرارة الحزن كما يقول فيليام وارسورت أحلى الذوق في عمق الحزن. فبذلك نرى الإستعمار والإستبداد، الفقر والفاقة، الحروب والإتهامات، والمجاعة والأعدام، والدموع والدماء أينما كانت هي قد تصدر الأدب الحيوي والفن الحساسي. إنه تبوب بالأدب العسجوني والمنافي الإغترابي وغيرها وهو الوجه الحقيقي أو الوجه الأبيض ولو كان مصنوعاً من سواد الظلام والألام والمرارات، وقد قيل : إن الأدب الروسي الذي سبق الثورة البلشفية هو أفضل من الأدب بعد الثورة كأدب تولستوي وغوغول وغوركي و دستوفسكي ، كما قيل عن أدباء الثورة الفرنسية كورنيه وموليير وهوغو وراسين وغيرهم. وهم في البلاد مختلفون وبالأقوال مجتمعون. فالأدب المهجري ايضاً تلون بهذه التلوينات الطبيعية، وهذا مؤلف من الأحوال الألام والمرارات في وطن آخر.

أدب المهجر

إن البحث للانفتاح والفرص دائماً طبيعة إنسانية، فالأدب المهجري يوضح هذه النفسانية في الإنسان وان الإمتزاج قد يظهر بأحسن الموجودات، الإمتزاج العربي بالأداب والثقافات الأخرى قد أدى الى اخراج ما احسن من الأداب، تبين بها الإضطراب والإضطراب والإضطهاد والإستبداد والإستشهاد، وآلام البعاد والتغرب والمنافي والسجون. هذا الأدب هو ادب الذين هاجروا اوطانهم الأم الى اوطان أخرى وفي قلوبهم رغبة العودة الى البلاد التي هاجروا منها، بهذا الصدد لا يمكن لنا اقتصار الأدب المهجر لبنانيا - وأمريكا فحسب لأن له دائرة أوسع فبذا نقسم الأدب المهجر الى ثلاث مراحل أولها المهجر العربي والأندلسي، وثانيها المهجر اللبناني والأمريكي وثالثها المهجر العراقي والأوروبي. والمرحلة الثالثة هذه هي وقعت أخيراً أو ما بعد الحداثة. وإذا قلنا ان خصائص الأدب المهجري منحصرة في الأدب الذي نعتبره أدب المهجر هي جريمة غير

مغفورة لأن بعض هذه الخصائص نراها في المعلقات وأشعار أخرى مثل الطللية هي ليست جديدةً تمامًا في الأدب العربي فقد شعر الكثير من الأدباء العرب عبر التاريخ بمعنى الاغتراب والبعد عن الوطن.

أما المهجر الأندلسي قد وقع في القرن السابع الميلادي، ففي هذه الفترة كان السبب من هجرة القبائل والجيوش العربية إلى بلاد إسبانيا بعد الفتح الإسلامي حيث لم يكن هناك اضطهاد سياسي ولا ضيق اقتصادي كما حدث في المرحلة الثانية والثالثة. فما الذي حدث في مجال العلوم والأدب في هذه البقعة الأرضية الأندلسية المسلمة هي عجائب تاريخية ووصلت إليها الوفود الأوروبية والغربية ليأخذوا العلوم المختلفة منها هو تاريخ مختومة الأفواه ولا مجال هنا للبيان لأنها مادة غير منسوبة لهذا الموضوع. المرحلة الثانية في الأدب المهجري هي هجرة الناس إلى أمريكا الشمالية والجنوبية لم تكن الهجرة الأدبية والفكرية إلى أمريكا مقتصرة على اللبنانيين، فهناك جماعات سورية وفلسطينية أيضًا وهم هاجروا إلى كندا ودول أمريكا اللاتينية كالبرازيل والأرجنتين وفنزويلا. لقد بلغ عدد المهاجرين بين عامي 1889-1919 نحو ستين ألفًا، وكان أول مهاجر عربي هو أنطون البشعلاني اللبناني الذي هاجر عام 1854 إلى أمريكا الشمالية ومات بعد سنتين من هجرته. أما أول أديب هاجر إلى الأرض الجديدة فكان ميخائيل رستم والد الشاعر أسعد رستم. وبلغت موجات الهجرة قمتها عام 1913.

مهاجر ما بعد الحداثة

هنا نناقش المهجر العراقي والأوروبي وفيه النزعات المتعددة والتحديات المختلفة. نعد هنا بعضًا منها واحدًا بعد واحد. وفي تعدادنا: المعلومات عن الأدب المهجري الحالي، العراق الحالية، العزلة والتغرب في هذه الأيام أسهل من العزلة والتغرب القديم، أدباء المهجر هم أدباء منفي، الأحوال السياسية المهجرية أو المنفى مرآة للأنشطة الأدبية، أدب المنفى رسالة نبوية لأنه يسعى إلى فهم الواقع العربي، الفكرة أن الكاتب لا يعيش في وطن ولكن هو يرتحل نحو الوطن، اللغة هي الوطن لأدب المنفى، التكفير وحرية التعبير، الأدب يبحث الوطن الفكري وهو أعمق من الوطن الجغرافي. ثم الخصائص في الأدب المهجري الحالي الفرق بين أدب الحديث وأدب المهجر، مسألة الأجيال الشعرية العراقية، جماعة كركوك، أدب المنفى السوري، أدب السجون وأعلامه.

المعلومات عن الحياة المهجرية

يمكن لنا القراءة عن الكثير من الأدباء العرب في المهجر أو المنفى يعيشون حياة صعبة ويضطرون للعمل في المطاعم والمحلات التجارية ومحطات البنزين لكسب المعيشة وتوفير ضروريات الحياة في كتابين هما «المغتربون» لعبد اللطيف اليونس، وكتاب «ذكرى الهجرة» لتوفيق ضعون. وهذه الحياة مشابهة إلى حد بعيد بما يعانيه الأدباء المهجرين في أوائل القرن العشرين. مع ما كانت الحياة مضطربة هناك نجاحات المغتربين في كافة المجالات حيث عملوا في كل حرفة وأبدعوا في كل علم تمامًا كحال المهجرين الحاليين الذين حازوا على جوائز كثيرة في مجالات الأدب والاقتصاد والعلم.

وفي أميركا الجنوبية لا نجد حاليًا أي أديب يكتب بالعربية في كل القارة الأميركية الجنوبية باستثناء الشاعر اللبناني قيصر عفيف الذي يعيش في المكسيك، بينما كانت أميركا الجنوبية حافلة بالأدباء المهجريين مثل جورج صيدح، رشيد سليم الخوري، نظير زيتون، شفيق معلوف، فوزي معلوف، إلياس فرحات، إلياس قنصل، زكي قنصل، شكرالله الجر، نعمة قازان، حبيب مسعود، توفيق ضعون، وغيرهم. كذلك أسس المهجريون النوادي الأدبية والجماعات الأدبية المختلفة، والمطابع العربية، والصحف والمجلات العربية، وأول صحيفة عربية ظهرت في المهجر الأمريكي كانت كوكب أمريكا عام ٨٩٢، أصدرها إبراهيم ونجيب عربيلي.

العراق الحالية

في السابع من شهر أكتوبر العام الحالي (٢٠٠٩) نشرت قطعة من الأخبار في الجريدة المليبارية "ماديامام" منتقلة من بي. بي. سي ان السيدة حنا بدران، رئيسة الجمعية الخيرية "الإثر" العراقية، هي جمعية تعنتي برعاية الأرامل والأطفال الذين فقدوا آباءهم في الحروب والانفجارات أن عدد الأرامل لدى الجمعية فحسب يبلغ نحو مليونين وعدد الأطفال بغير عائلة ولا أعوان نحو ألف ألف وأن كثيرا منهم في بشعة الشكل من اثرة الانفجارات النووية وما يتقلق بها. فما حدث لهؤلاء الأزواج والأبواء؟ فما هي أحوال حقوق الإنسان هناك؟ كيف يمكن الحياة لعامة الناس؟ في كثير من الأيام نقرأ في الجرائد ونشاهد على الشاشة التلفزيونية أخبار انفجارات القنابل والصواريخ منفردة ومتتالية على رؤوس الناس العراقيين ولقوا مصرعهم بعدد غير قليل من المئات والآلاف. إن هذه هي الأحوال المستبدة المظهدة قد أجبرت الناس العراقيين الهجرة الى الأماكن المختلفة مثل إفريقية المغربية ثم الى البلاد الأورثبية، إذا كان المهجر والأدب المهجري في بدايات القرن العشرين أميركياً ، ولبناني الطابع بشكل أساسي، فإن المهجر الجديد هو أوروبي وعراقي ثم سوري الصبغة.

الأولى

الهجرة في السابق كانت غربة وعزلة شديدتين حيث طرق المواصلات بطيئة وغالية، وأغلب المهاجرين لا يعرفون لغات المجتمعات الجديدة ولا شيء عن تلك الحضارات. أما اليوم فالمهاجرون الذين يعيشون في أوروبا أو أميركا يستطيعون قراءة الجرائد العربية اليومية عبر الانترنت أو الصحف الورقية التي تصل إلى أماكن متعددة من العالم. كذلك يستطيعون التنقل بحرية وبساطة بين الوطن الأم والمهجر.

الثانية

قديمًا أدباء المهاجرين يعتبرون أنهم أدباء المهجر وهم اليوم أدباء منفي لأن الكثيرين يفكرون ويشعرون أنهم غير مهاجرين بل في منفي لأنهم أولاً: إما أن يمتزجون بالمجتمع الجديد ويصير واحدًا معه، أو أن يعيش وجع المنفي واغتراب الروح والأرق المكرس للأبد، وهذا الوجع والاغتراب والأرق هو ما يعيشه أغلب الأدباء المنفيين. ثانيًا: لأن الوطن ليس مكان الذكريات الماضية، ولا حلم المستقبل الذي يأتي ولا يأتي. لكنه لحظة عشق يختارها حتى الموت، ويرحل نحوها كغرباء ومنفيين. يكوننا الشوق،

وتتهيأ لهفة اللقاء. وهذه اللحظة العشقية قد اختارها أغلب الأدباء المنفيين. ثالثاً: لأنهم يعيشون في الشتات أحلام الحرف والوطن والهوية، ويسعون للحرية وقلوبهم مأسورة هناك بين المحيطين. رابعاً لأنهم يعشقون، وعشقهم أوسع من عيونهم التي تربى رويداً رويداً طيور العودة إلى الوطن.

الثالثة

نرى أن المهاجر الأوربية والأمريكية هي خير بيئة لنمو الثقافة العربية المعاصرة وحصول حوار حقيقي، بسبب تعدد الثقافات وتنوعها واختلاف الآداب المجاورة للأدب العربي، بشكل يسمح بلقاء الآخر دون تسلط واستبداد. فالأدب العربي المنفي هو رسالة نبوية من أجل أدب عربي ناضج ومتدفق.

الرابعة

كذلك يحمل أدب المنفي رسالة نبوية لأنه يسعى إلى فهم الواقع العربي والتعبير عنه بلا خوف أو تردد، فالأدب في الداخل ما يزال مهدداً بالرقابة والسلطات الدينية والسياسية. ولذا الشرق الأوسط تفهمه في المهجر.

الخامسة

الكاتب لا يعيش في وطن، إنه يرتحل نحو الوطن، يعيش والكلمة كوطن.. إنه يفهم الانتماء كحاجة طفولية ويتخطاه، لكنه يبقى يحب أن يعود إلى حارته يوماً ويسهر على عتبات بيته.

السادسة

الأدب المنفي ظاهرة عالمية يضم أدب المنفي العربي داخل جناحيه كأحد جراح، لأن الأدب الحقيقي هو الخارج عن الحدود. إنه أدب المنفي بلا وطن لأن اللغة وطنه.. اللغة رحم!! اللغة ولادة!

السابعة

ظاهرة التكفير واحدة من الأشياء المضحكة المبكية في وطننا. ويبدو أنها تنتصر في معظم الأحوال على حرية التعبير. فالكثير من الكتب الأدبية تمنع من الدخول إلى بلد عربي أو أكثر. الثالوث المحرم الجنس والدين والسياسة ما يزال يضغط على الأفلام. لذا التكفير وحرية التعبير من أهم القضايا. الأدبية.

الثامنة

إن الأدب المهجري شكل مدرسة متكاملة رومانطيقية، أساتذتها هؤلاء الشعراء المتمردين المفتشون عن الحرية والمعنى، المغتربون في عالم آخر خارجي وعوالم كثيرة داخلية.

التاسعة:

يغلب الطابع الإنساني (كالحنين ومحبة الوطن)، والقيم الفاضلة (كالحرية والانفتاح على الآخر)، على الأدب المهجري منذ نشأته في بداية القرن العشرين وحتى اليوم.

العاشرة

أما الروائيون فما يزالون يكتبون عن الوطن والحنين، وعن المنفى والعزلة، وعن الحرب والموت والفشل مثل رواية «من المهد إلى اللحد» لأنطون شكور ورواية نظير زيتون «ذنوب الآباء». ورواية «في سبيل الحرية» لإلياس قنصل. وبعض المسرحيات مثل مسرحية «الآباء والبنون» لميخائيل نعيمة ومسرحية «ابن حامد» لفوزي المعلوف. الحادية عشرة. الأدب المهجري أدب مهموس (كما يسميه الناقد الدكتور محمد مندور) لأنه عميق وواقعي ومرتبطة بالحياة وليس فيه الخطابية والسطحية الثقافية.

مسألة الأجيال الشعرية العراقية:

هناك الكثير من المقالات والكتب في موضوع الأجيال الشعرية العراقية إذ يبدو أن هناك تشبهاً شديداً بمفهوم جيل الستينات، وجيل السبعينات، وجيل الثمانينات. ارتبط جيل الستينات الأدبي بقوة النشاط السياسي في العراق مع كل ما حمل ذلك النشاط من أيديولوجيات ثقافية وفكرية ترفع أبناء الحزب الواحد، وتهتمش أفراد الأحزاب الأخرى، فصار الارتباط الأيديولوجي بالجماعة السياسية جزءاً من النشاط الأدبي الثقافي للفرد. وعند بروز جيل السبعينات حدثت ثورة فكرية ضد الأبوية الشعرية أو الأدبية لإعلان «البديل الأنضج» وإزالة «القدماء» والجيل الماضي.

أدب المنافي السوري

إن الوضع العام الذي أنشأ الرقابة الصارمة القائلة وأدب السجون يستتبع نشوء أدب المنافي حيث يحاول الأدباء مكرهين مغادرة أوطانهم ، ومرابح فتوتهم وشبابهم ، حيث الأهل والأصدقاء والطبيعة الجميلة .. إلى أماكن مجهولة عليهم ، أو غريبة عنهم ، أو غير مرحبة بهم ، وظروف لا تقل معاناتها أحياناً عن مرارات السجون والرقابة أيضاً ، فلكل قطر جديد سجونته وراقبته وقيوده ما دمت غريباً ، وفي عصر الحملات على ما يسمى (الإرهاب) نكهة إضافية لم تعهد من قبل. ومن شعراء المنافي :عمر بهاء الدين الأميري - حيدر غدير - محمد وليد - سليم عبد القادر - يحيى حاج يحيى - سليمان العيسى وغيرهم

أدب السجون

أدب الممانعة وادب السجن ايضاً لهما نسبة بالأدب المهجر الحالي أو الأدب المنفى، ذلك لأن السجون استقبلت الآلاف من المواطنين الأدباء وغير الأدباء محرومين ما يستمتع المسقلين في الخارج، وهم في المعنى خارج البلدان العادية وما تزال تستقبل وتودع على مدار الساعة. يقول الشاعر فرج بيرقدار السوري: في الواقع إن ما هو معروف من أدب السجون أقل بكثير مما لم يعرف ، وذلك لخوف البعض من نشر ما كتبوه، أو

لخوف الناشرين ، أو لمنع السلطات نشر وتداول ما يكشف <عطاءاتها> الحقيقية التي أتحت بها شعوبها . أعتقد أن المستقبل سيرشحننا ، لأن نكون أصحاب أكبر تراث عالمي في أدب السجون كماً ونوعاً ، ولعل هذا سيكون أحد أهم وجوه تفوقنا المعاصر في حقل ما ، على صعيد المجتمع البشري، وبالمناسبة اضطر هذا الشاعر إلى ابتلاع جثة فأر ميت تحت التعذيب في سجن تدمر، كما جاء في مقابلة له لجريدة (النهار).
فالشعراء: فرج بيرقدار، من دواوينه: وما أنت وحدك - رقصة جديدة - في ساحة القلب - حمامة مطلقّة الجناحين - تقاسيم آسيوية . محمد الحسناوي - في غيابة الجب .
مروان حديد : ديوانه - علي صدر الدين البيانوني- من ذكريات الماضي .